جزر السيشيل.. فردوس أرضي

ارتمى في حضن المحيط الهندي

لا أنكر أنني شعرت ببعض الخوف من جزر السيشل وموريشوس.

فقد راودتني الكثير من التساؤلات: هل ستكون هذه الجزر كما ظنتها مخيلتي، فكتبت عن جزر فردوسية تعوم وسط المحيط الهندي على مسافة1600 كيلومتر من الساحل الأفريقي الشرقي و1100 كيلومتر عن مدغشقر، مستعينة بالمشاهد الخلابة المنبثقة من الشاشة الإلكترونية أو من البطاقات البريدية !

فأحيانًا يشطح بنا الخيال إلى اللامعقول، ليشكل واقعًا افتراضيًا يصل إلى حد الكمال في تفاصيله، ننقشها في كتاباتنا لتبدو ضربًا من الأساطير.

هل ستكون جميلة كالصور التي كنت أراها و أحيانًا أتخيّل نفسي وسطها! كل هذه الأفكار راودتني و لكنني كنت أقول مهما يكن فإن ما نراه على الشاشة و نسمعه فيه بعض الحقيقة .

حزمت حقيبتي الصغيرة انتظرت بفارغ الصبر موعد رحلتي إلى سيشل، فحاولت إحراق ساعات الانتظار بالتجوال في المطار الذي تحوّل إلى مدينة عالمية فيها كل سبل الراحة، و رغم ذلك شعرت بأنه لن ينتهي فقررت أخذ قسط من النوم في غرفة الفندق لأنه يجعلنا خارج الزمان و المكان و غالبًا ما ينتصر على الزمن الأرضي.

عند الثانية عشرة بعد منتصف الليل أيقظتني رسالة SMS من ساندي تقولي إنها ستلاقيني في صالة الانتظار.

مطار محاط بالماء

بعدما تعرّفت إلى زميلي الرحلة توجّهنا إلى الطائرة لنحلّق حوالى أربع ساعات في الفضاء الكوني.

عندما أعلن قبطان الطائرة أننا صرنا في أجواء سيشل بدأت أنظر من النافذة الدائرية إلى سرب الجزر الصغيرة التي بدت لي كأنها مجموعة من حوريات البحر يتبادلن أطراف الحديث أثناء العوم في المياه البلورية.

و كم كانت التجربة جميلة عندما حطت الطائرة على مدرج أرض مطار محاط بالماء.

لم يكن هناك نفق يفصلنا عن بوابة الدخول إلى الجزيرة، بل بكل بساطة نزلنا درجات سلم الطائرة و توجهنا إلى مطار صغير جدًا رغم أنه دولي.

هكذا استقبلتنا جزر سيشل بنسائم برية ممتزجة بريح بحرية.

تخيّلت نفسي ألعب دورًا في أحد أفلام هوليوود.

فهنا المطار بسيط جدًا تتدلى من سقفه المراوح الكهربائية الخشبية و خلف موظّف الأمن العام سلم من الخشب يصل إلى الطبقة الثانية، و تصدح في أجوائه موسيقى السيغا التقليدية، فانتابني شعور غريب بالغبطة لا أزال أعيش تردداتها إلى اللحظة التي أكتب فيها.

النسر العربي الدولية © ٢٠١١

تأملت في وجوه القادمين إلى سيشل، فكانت باسمة يبدو عليها التأهب لمواجهة جيش الجمال المحتشد عند بوابات المطار.

أنهينا إجراءات منح إذن الدخول، إذ يمكن السفر إلى سيشل من دون تأشيرة دخول ما عدا بعض الجنسيات .

و استقبلنا ماكس ويل و هو، مرشد سياحي يعمل في مكتب السياحة كريول، ثم اصطحبنا إلى صالون الاستقبال حيث كان في انتظارنا زملاؤه، فقدّموا لنا في البداية الفوط المبللة و المعطّرة بماء الزهر التي أحسست إنها مقدّمة لاختراق حواسي الخمس.

فبرودة الفوطة حين وضعتها على وجهي كانت أوّل وسيلة تواصل بيني وبين الجزيرة، ثم اخترقت الرائحة الزكية حاسة شمي لأعي أن ما كنت أظنه لم يكن خيالاً، ثم شربت العصير البارد فبردت معه كل تساؤلاتي.

بعد الاستقبال خرجنا من المطار و ركبنا الحافلة الصغيرة التي بدأت تجول في جزيرة ماهي كبرى جزر السيشل.

الطريق إلى فندق Banyan tree hotel كانت معبدة بالأخضر والأزرق، فعلى جنبات الطريق تتمايل أشجار النخيل مع الهواء و كأنه مشهد لرقصة سيغا لا تنتهي رغم تواتر الليل والنهار.

لتفاجئنا الشواطئ اللؤلؤية التي تظهر تارة على يميننا و تارة على يسارنا تنبثق منها الأشجار، فيها النبات الشديد الخضرة يسبح أحيانًا في مياه فيروزية، و أخرى يقف على يابسة متعددة الألوان تتسلل إلى طرق ضيّقة حلزونية تائهة وسط فردوس أرضي .

كانت عبارة« معقول ما نراه» تتردد على أفواهنا جميعًا.

لقد أدركت أن ما كنت أراه على البطاقات البريدية ليس سوى تفصيل صغير من روائع هذه الجزر، ربما لأن عدسة الكاميرا تقف عاجزة أحيانًا أمام تحدّي الطبيعة.

تنفست الصعداء و قلت في نفسي ها أنا وسط اللوحة الطبيعية التي لا تحدها أبعاد كاميرا و لا زوايا شاشة .

أثار مشهد التلامذة الصغار و هم ينتظرون الباص نهرًا من الأسئلة التي رحت أطرحها على ماكس ويل. هنا في سيشل المدارس حكومية و لا توجد جامعة بل على من يريد أن يكمل دراسته الجامعية السفر إلى خارج، فالسكان يتقنون ثلاث لغات الإنكليزية و الفرنسية و الكريول هي اللغة الأم، و هي مزيج من الفرنسية و السيشلية. و السبب أن سيشل كانت مستعمرة فرنسية ثم مستعمرة إنكليزية و بعدها تحوّلت إلى دولة شيوعية ثم نالت استقلالها أواخر سبعينات القرن الماضي لتصبح ذات نظام حكم رئاسي جمهوري .

كان ماكس فخورًا بجزيرته يعرف كل تفصيل عنها سواء كان تاريخيًا أو جغرافيًا أو سياسيًا أو اجتماعيًا... فأطلقنا عليه موسوعة متنقلة، فما أن نسأله عن شيء حتى يجيبنا بكل التفاصيل.

النسر العربي الدولية © ٢٠١١

بعد حوالى الساعة وصلنا إلى منتجع و فندق Banyan tree hotel القابع وسط الغابة الاستوائية.

استقبلتنا شيلا مسؤولة العلاقات العامة في الفندق، و كما حدث في المطار، «الوجه الضاحك و الفوطة الباردة و الشراب». فقالت لنا ساندي إنه تقليد ستجدونه أينما تذهبون.

أطلق على الفندق بانيان تبعًا لشجرة البانيان النادرة و الرمز في الجزيرة و التي أيضًا تستقبلك عند المدخل الرئيسي للفندق .

اصطحبتنا شيلا في جولة للتعرّف إلى الفندق.

ركبنا الباغي الذي بدأ يدور بنا وسط أروقة غابة استوائية تقبع بين أشجارها العملاقة فيلاّت الفندق الستون تنتشر عند الواجهة البحرية، و تحتوي كل منها على حوض سباحة خاص و تيراس فضلاً عن توافر كل سبل الراحة .

و هناك الفيلا الرئاسية و الفيلات التي تتألف من غرفتي نوم.

كانت شيلا فخورة بعملها في هذا الفندق.

و لمَ لا ! تخيل نفسك موظفًا في فردوس أرضي حيث كل شيء ترف و أقرب إلى الكمال.

بعد جولة التعرّف إلى الفندق وزّعت علينا شيلا مفاتيح فيلاتنا.

كانت الفيلا التي مكثت فيها في أعلى القمة وحوض السباحة فيها بدا امتدادًا للمحيط. إنه خداع البصر.

جلست أتأمل المحيط الأزرق الذي لا نهاية له، و في وسط تأملي اخترق السكون تغريد سرب طيور هي «سكان» المكان الذين شعرت بأنهم يخبرون بعضهم عن الغريبة التي تسكن منطقتهم، فحدث حوار موسيقي أقرب إلى السمفونية .

بعدما أخذت قسطًا من الراحة توجهت إلى مطعم ساند Sand ، و هو واحد من ثلاثة مطاعم موجودة في الفندق لتناول الغداء مع مدير الفندق أندريه ديمبلاد.

خلال الغداء حدّثنا أندريه عن المواقف الطريفة التي تحصل في الفندق.

فهنا يقيم الكثير من زوار الجزيرة حفلات أعراسهم و آخرون يحتفلون بعيد زواجهم.
و ذكر أندريه أن أحد العرسان الشبان أراد أن يعبّر لعروسه عن حبّه الأبدي فاختار لها خاتمًا صمم على شكل رمز infinity و أراد أن يضعه في كأس الشراب و طلب من المدير أن يقيم نخبًا للعروسين، و في كل مرة كل يقول نخبكما كانت العروس تشرب من دون أن تنتبه لأن هناك خاتمًا في الكأس إلى أن قال لها أندريه في المرة الرابعة ألم تلاحظي أن هناك شيئًا في كأسك؟ فقالت بلى ما هذا الشيء حشرة! فما كان منه أن قال بصوت عال «لا إنه خاتم من الماس» و صار كل المدعوين يضحكون.

كما أخبرنا عن قصة العروس التي لم تأخذ بنصيحته و جلست تتسمر قبل العرس بيوم إلى أن تحوّلت إلى حمراء في فستان أبيض .

النسر العربي الدولية © ٢٠١١

انتهى الغداء وانتهت معه بعض القصص الطريفة.

لاحظت أن العاملين في الفندق يعرفون النزلاء و يكوّنون علاقات إنسانية جميلة، فتفاجأ أحيانًا أن من يقلك بالباغي إلى الفيلا هو مدير الفندق .

بعد الغداء اصطحبنا ماكس ويل إلى المرفأ، و في الطريق كانت المشاهد الخلابة تتوالى على أبصارنا .

فالأشجار الوارفة و النبات و الأزهار منسّقة بشكل يعجز خيال أعظم منسّقي الأزهار في العالم عن ابتكاره.

توقفت الحافلة عند طرف الطريق، ترجلنا منها و رحنا نلتقط الصور للجزيرة و دهشتنا تزداد، فكأننا لا نستطيع استيعاب ما حولنا.

عدنا وركبنا الحافلة إلى أن وصلنا إلى المرفأ.

هنا تجد سكان البلدة مجتمعين لتناول الشراب و الثرثرة في المقهى.

الكل يعرفون بعضهم هذا ما استنتجته من خلال سلامهم و تداول الأحاديث بينهم .هذه حسنات البلدات حيث الصغيرة تبقى العلاقات الإنسانية متينة .

ركبنا اليخت لنبحر في حضن المحيط الهندي على مقربة من الساحل لنتأمل جزيرة ماهي و باقي جزر السيشل و هي تودع الشمس.

أبحر المركب على مقربة من الساحل المحتشد خضرة و جمالا يصعب وصفه، تسكن بين أشجاره الدغلية بيوت رائعة.

اللافت هنا في الجزيرة أنه ممنوع بناء أبنية مرتفعة كما ممنوع البناء في المناطق الجبلية، و السكان لا يعترضون لأنهم يعشقون طبيعة جزيرتهم و لا يريدون تعكير صفوها، بل تشعر بأنهم متماهون معها إلى أقصى حدود، فتجد الهندسة المعمارية للبيوت و الفيلات متناغمة مع أشكال الغابة و ألوانها لتكون جزءًا منها.

مررنا بالجزر الصغيرة و بعد حوالى الساعة من الإبحار بدأت الشمس تغطس في المحيط فتغيرت ألوان السماء و المياه و تبدلت من الأزرق الفيروزي إلى الرمادي الممزوج بخيوط الغسق الأرجواني، إلى أن تحوّل كل شيء إلى رمادي، ثم ساد سواد الليل الذي بدأت تزركشه النجوم و كأنها ثريا تناثرت أنوارها بعبثية جميلة أطلقت لمخيلتي العنان في تحديد أشكالها.

عدنا إلى البر و عادت السيارة تدور بنا إلى أن وصلنا إلى الفندق.

انتهى يومي الأوّل في سيشل و غططت إراديًا في نوم عميق لأنني رغبت في انتهاء الليل حتى أكمل اكتشافي لهذه الجزر .

أيقظني تغريد العصافير و صوت المحيط الذي استغربت أنه كان هادئًا و لكن صوته هدّار.

تناولت قهوتي على تيراس الغرفة مستمتعة بلحظة شروق الشمس و استيقاظ مخلوقات الطبيعة... لطالما كنت أحب مراقبة صباح المدن و تسارع خطوات سكانها لبدء يومهم.

قرأت برنامج الرحلة، اليوم سنذهب إلى فيكتوريا عاصمة السيشل.

النسر العربي الدولية © ٢٠١١

أعددت عدتي و كاميرتي و تأكدت أن بطاريتها معبأة .

لم أطلب باغي يقلني إلى بهو الاستقبال بل أردت أن أسير وسط الطبيعة، و لكن الطريف أنني التقيت باغي في طريقي و سألني سائقه هل هذا رقم غرفتك؟ قلت نعم. و عندما وصلت إلى بهو الاستقبال اكتشفت بالصدفة أنه اختلط علي الأمر، فرقم الغرفة كان لساندي التي أخبرتها عن سبب تأخر الباغي ليقلّها، فصرت أضحك مبررة أن الطبيعة هنا دوّختني إلى درجة نسيت فيها في أي فيلا أقيم.

كان ماكس في انتظارنا و ركبنا الحافلة متوجّهين إلى فيكتوريا و تحديدًا إلى وسطها التجاري .

في فكتوريا أراد زملاء الرحلة التوجه إلى المصرف لتحويل النقود من الدولار إلى الروبي، خصوصًا أن روبي السيشل تختلف عن روبي جزيرة موريشوس و لا فائدة من الاحتفاظ بها.

فرغم أنه يمكن تداول الدولار أثناء التسوّق فإن النقود المرتجعة تكون روبي.

لفتت نظري نظافة الشوارع إلى حد أن حاولت أن انظر في الزوايا علّني أجد ورقة رُميت عن طريق الخطأ لكن عبثًا حاولت، فقلت في نفسي «حسنًا، ربما لأن المنطقة سياحية».

و كم كانت سعادتي كبيرة عندما عرض علينا ماكس الذهاب إلى السوق الشعبي، فهناك لا بد أن الصورة مختلفة...

و لكن لم يصدق توقّعي.

تخيل أنك تدخل إلى سوق الخضار و السمك و الملابس و لا تجد نفايات مرمية على الأرض!
فالسوق مؤلف من طبقتين أرضية و عليا، الطبقة الأرضية مخصصة للخضار و الأسماك و العطارة. أما الطبقة الثانية فللملابس و التذكارت

يبدو أن السلوك الإنساني للباعة في الأسواق الشعبية هو نفسه في كل مدن العالم رغم اختلاف اللغة، ففي سوق الخضار و السمك تسمع الباعة ينادون على بضائعهم و يتنافسون على تخفيض الأسعار لأنهم يريدون بيعها قبل أن تفسد .
رفعت رأسي و كانت العباءات و الشالات تتدلى من الطبقة الثانية بألوان زاهية تدعوني لزيارة متاهتها، فانقدت إليها لا إراديًا لأكتشفها.

السوق بطبقتيه مضمخ بعطر البخور و عشبة السيترونللا التي تشتهر بها الجزيرة و يصنع منها الشاي و الصابون و الشامبو و«جل» الجسم و البخور.

في الطبقة الثانية رحت أمارس هواية المساومة على السعر فضولاً مني لأعرف مدى صمود البائعات، و غالبًا ما كنت أفوز، و كذلك زملاء الرحلة فأصبحت المساومة على السعر أسلوبنا في الشراء.

حتى ماكس الذي نصحنا بالقيام بها قال إنه لم يتوقع أن نحصل على حسومات كبيرة كالتي حصلنا عليها .

بعد التسوّق و شراء التذكارات ركبنا الحافلة التي صعدت بنا نحو الجبل و المشاهد الخلابة تتكرر، و في طريقنا توقفنا عند حديقة مسوّرة بسياج من الشباك الحديدي حيث تجد السلاحف العملاق تتبختر ببطء واثقة رغم أنها ثقيلة الخطى و كأنها تتغنج على العابرين الذين ينقادون لفضولهم و يحاولون التقاط الصور معها من خلف السور، فلا تأتي إليك إلا إذا عرضت

النسر العربي الدولية © ٢٠١١

عليها ورقة عشب لتطعمها، و تفاجئك حين تفتح فاهها الكبير مما يثير الخوف، و كادت إحداهن تعض يدي لو لم تنبهني ساندي .

تابعنا صعودنا إلى أن وصلنا إلى محمية ميشن لودج Mission lodge و هو موقع كان في الماضي مدرسة لأبناء العبيد المحررين.

هنا المشهد بانورامي يقطع الأنفاس و تتمنى أن تسكن فيه إلى الأبد، فكل ألوان الطبيعة متمازجة بشكل يصعب على العين استيعابه.

بعد المحمية نزلنا إلى الساحل لزيارة منتجع أوفيليا و تناول الغداء فيه. وكما توقّعت ترف الطبيعة متوحد مع ترف الإبداع الإنساني، و كأنما هناك تحد أبدي بينهما نتيجته التعادل.

كان جميلا أن نلتقي في المطعم الذي تناولنا الغداء فيه شيف مطبخ تونسيًا تحدث إلينا بالعربية و كان سعيدًا لأنه ينطق بلغته في جزيرة قرّر العيش و العمل فيها .

عدنا إلى فندق بانيان تري و كلنا حماسة لجلسة التدليك التي عرضت علينا.

هنا في السبا قمة الاسترخاء. تستقبلك المدلكات بشاي من السيترونيللا و يعطينك استمارة تملأها للاستعلام عن الوضع الصحي و ما إذا كنت تعاني حساسية، ثم تختار نوع التدليك الذي ترغب فيه، فكل مدلّكة متخصصة بنوع من التدليك .

ثم تدعوك للذهاب إلى جناح التدليك الخاص بك وحدك وسط الطبيعة لتنعم بقمة الاسترخاء، فلا تسمع سوى هدير أمواج و زقزقة العصافير و تداعبك النسائم الآتية من المحيط فتتخدر الحواس لحوالي 90 دقيقة وسط فردوس أرضي منفلت من عبثية العالم الحديث.

إبحار نحو برالاند

صباح اليوم الثالث انتقلنا بالعبارة البحرية» كات كوكو» إلى جزيرة برالاند التي وصلنا إليها بعد حوالى الساعة من الإبحار.

كان في استقبالنا عند المرفأ شاب يعمل في مكتب كريول السياحي لم أعد أذكر اسمه، و لكن ما أذكره جيّدًا أنه قليل الكلام و الشرح عكس ماكس، فمثلاً اكتفى بأن يدلنا على مستشفى الجزيرة من دون أن يقدّم التفاصيل.

و بعد ربع ساعة وصلنا إلى المتنزّه الوطني، و هو محمية طبيعية لشجرة كوكو دو مير Coco de Merالممنوع قطف ثمارها لأنها من الشجر النادر و تحتاج إلى خمسين سنة لتنضج.

بعد المحمية مررنا بوسط المدينة و كان كل شيء جميلاً إلى درجة اني اعتدت على المشاهد فلم أعد أعلّق عليها بالكلام، بل أكتفي بتنفس الصعداء و كأن بي أريد أن أخزنها عبر استنشاق الهواء النقي المتخم بالأوكسيجين في ركن الذاكرة الموجود في دماغي.

يلفتك في جزر سيشل اهتمام سكانها بالطبيعة و المحافظة عليها و النظافة أيضًا و أيضًا، ففي وسط المدينة التقيت العديد من الباعة الذين يكنسون الأرض و يهتمون بنظافة الشارع كما لو أنه بيتهم.

لم أستطع و أنا أنظر إلى هؤلاء الباعة إلا أن أقارن بمشهد في أحد أسواقنا العربية لا سيما في بلادنا حيث تجد صاحب الدكان يقف أمام دكانه و يرمي كوب القهوة البلاستيكي ليس أمام دكانه طبعًا، بل وسط الشارع، لأنه لا يريد أن يشوّه واجهة متجره!

النسر العربي الدولية © ٢٠١١

من وسط المدينة انطلقنا إلى منتجع لوميريا Lemuria حيث استقبلنا مدير المنتجع.

و عندما عرف أنني لبنانية قال لي إن هناك شابًا لبنانيًا يعمل في إدارة المنتجع و هو لبق جدًا سنتعرف إليه أثناء تناول الغداء.

يتألف المنتجع من فيلات عدة تختلف أحجامها و لكنها جميعها توفر كل سبل الترف، فضلاً عن أن المنتجع يضم حضانة للأطفال و ملعبًا للغولف و هو ممتد على مساحة شاسعة.

بعد جولة المنتجع التقينا فرح الشاب اللبناني على الغداء، و بدا سعيدًا في عمله في هذا المنتجع .

بعد الغداء و تناول الشاي كان لدينا مغامرة السباحة عند شاطي جون جورجيت حيث أمضينا لحظات لا تنسى من المغامرات البحرية في المحيط الهندي.

تخيل أنك تسبح مع السمك في مياه فيروزية تذوب في لؤلؤية الشاطئ.

لم نكترث لعمودية شمس خط الاستواء، فتصرفنا كما الأطفال غير آبهين بحرارة الشمس.

انتهى يومنا على الشاطئ و عدنا أدراجنا إلى ماهي و كنا منهكين، و رغم ذلك قررنا أن نستفيد حتى آخر لحظة من وجودنا في سيشل و تناولنا العشاء في مطعم Sand في فندق بنايان تري.

جمعينا ترسّخ لدينا الاعتقاد نفسه بأن سيشل فردوس أرضي، و من تطأ قدماه أرضه فلن يرغب في العودة إلى العالم الآخر الساكن خلف المحيط .

صباح اليوم الأخير تناولت الفطور محاولة أن أرصد بعض التفاصيل التي انفلتت من ذاكرتي وقد شاركني الفطور في البداية سرب من العصافير الصغيرة التي اعتادت أن تقفز بين طاولات المطعم لتأكل فتات الخبز الذي يرميه لها رواده، ففي النهاية نحن ضيوف المكان و العصافير سكانه .

تركت سيشل محلقة في الفضاء نحو جزيرة موريشوس بعدما طبعت قدر استطاعتي صورًا لجزر غمرت ذاكرتي بألوان الطبيعة.

معلومات مفيدة

جزر السيشل عددها 115 جزيرة

ماهي كبرى جزر السيشل

العاصمة :فيكتوريا

اللغة الرسمية :الإنكليزية والفرنسية والكريول

العملة :روبي ويمكن التداول بالدولار واليورو

الدولار الواحد يساوي 11,6 روبي سيشل

النسر العربي الدولية © ٢٠١١